الثنائيات الفكرية والاجتماعية كما نتصورها

محاضرة في نادي نجران الأدبي

١٤٣٢/٢/١٤-٢٠١١/١/١٨م

كررت في خميسية الجاسر في ٦/ ١/ ١٤٣٣هـ

١/ ١٢/ ٢٠١١م

مرزوق بن تنباك

العلمانية: علاقة الدولة بالناس.

الديمقراطية: علاقة الناس بالناس.

بحث الناس منذ القدم عن ما يربط بينهم ويسعد اجتماعهم ويحفظ حقوقهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض : وقد جربوا كثيراً من الفلسفات والمعارف والأفكار في امر الدين ومرة في أمر الدنيا ومرات أخرى في العادات والتقاليد.

ثم جاءت الأنظمة الاجتماعية لضبط المجتمع وإدارة الناس. وبعدها جاءت الأديان وتعاقبت الدول والحكومات التي حاولت جادة كل الجد بالبحث عن علاقة مثالية لإدارة المجتمع الذي يعيش على الأرض مع تنوعه واختلاف أعراقه وأجناسه وأعرافه وتقاليد حياته بل لغاته وأديانه.

فكر الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة ورجال الدين بشيء يجمع البشر ويساوى بينهم في الحقوق والواجبات ويقيم العدل بين الناس رغم اختلاف ما ابتدعوه من تقابلات في حياتهم وأجناسهم. كانت سعادة المجتمع ما يطلبه المصلحون ويرغبه المجتمعون على كل صعيد. وكانت المحاولات والتصورات متعددة بتعدد الاجتهادات التي حاولت وجود وسيلة حياة تسعد الناس في إدارة شؤونهم ومن هذه المحاولات الكثيرة. ما حقق جوانب

www.mtenback.com

مما يطمع إليه الناس فعاشت مع الزمن ، منها الديموقراطية والعلمانية واللبرالية ولا أظن أحداً يعيش اليوم ويهتم في شؤون المجتمع المعاصر وشجونه إلا وقرأ وسمع عن هذه المصطلحات. وكون عنها تصورا ما في ذهنه قد يقرب من حقيقتها أو يبعد عنها.

من هنا سيكون حديثنا:

هذا الصباح عن مفهومنا نحن العرب والمسلمين لهذه الافكار وتقريب مضامينها إلى واقع وجودها عندنا.

معلوم ان هذه المصطلحات نشأت في بيئات مختلفة عن بيئتنا ومارستها أمم في مراحل طويلة من تاريخها وأوجدتها ظروف عميقة في بنية تلك المجتمعات، انتهت إلى ما نعرفه اليوم ونحاول قراءته قراءة قد لا تكون مطابقة لحقيقته وتصوره من خارج البيئة التي مارسته واستقرت عليه.

وقبل ذلك أود أن أبدأ بتعريف مختصر لكل مصطلح من هذه المصطلحات التي نرددها في أدبيات حياتنا الاجتماعية والفكرية وقد لا نكون على إلمام دقيق في مضمونها وإنما نخلع عليها تصوراً خاصاً بنا بعيدا عن واقع المصطلح عنده اهله. سأبدأ بأقدمها وجودا وهي.

الديمقراطية Democracy :

الديمقراطية كلمة يونانية تعني حرفيا حكم الشعب وهي نظام سياسي واجتماعي يقيم العلاقة بين أفراد و المجتمع والدولة وفق مبدأ المساواة بين المواطنين ومشاركتهم الحرة في وضع التشريعات التي تنظم الحياة العامة واختيار نخبة من الشعب لحكمه.

وهو مبدا فسر فيما بعد بأن الشعب هو مصدر السيادة. ومصدر الشرعية وقد اختصر " أبراهام لنكولن" الديمقراطية بقوله: حكم الشعب لصالح الشعب، بواسطة الشعب.

www.mtenback.com

أما التطبيق فقد مرت الديمقراطية بمراحل مختلفة وتجارب متعددة وأصبح لكل شعب من الشعوب ممارسته للديمقراطية الخاصة به حتى أنك لتجد أن لكل دولة ممارسة ديمقراطية مختلفة عن غيرها أو بالأصح تأخذ كل دولة شكلاً من أشكال التطبيق الديمقراطي قد يكون كثيرا أو قليلاً وقد يكون قريبًا من الأصل وقد يكون بعيداً عنه، لكن في العموم الديمقراطية هي أصلح نظام لإدارة الناس وتحقيق المبادئ التي طالبت بها النظم الاجتماعية والدينية.

والفلسفية، وحققت شكلا من أشكال المشاركة لعموم الناس فيما يخص حياتهم.

حتى صارت بعض الأنظمة الاجتماعية تضيف إلى الديمقراطية صفات مثل الديمقراطية الشعبية والديمقراطية الاشتراكية وغيرها عشرات الصفات والممارسات التي تأخذ من أصل مبدأ الديمقراطية بعض ممارساتها. ونحن في العالم العربي والإسلامي لنا مفهومنا الذي ندور حوله في شؤون الديمقراطية قبولا مرة ورفضا أخرى كما أن ذلك يعود لالتباس في حقيقة الديمقراطية ومصدرها الذي يظن بعضنا أنه ينافي الثوابت في الثقافة العامة.

العلمانية Secularism :

مفهوم سياسي واجتماعي نشأ إبان عصور التنوير والنهضة في أوربا. عارض سيطرة الكنيسة وهيمنتها على المجتمع، نادت بأن يكون الدين صلة بين الإنسان وربه، وأن تدير الدولة شؤون الناس في الدنيا. فالدين أمر شخصي والسياسية علاقة اجتماعية. ومن فلسفة العلمانية نشأت الدولة القومية التي ألغت الانقسامات في المجتمع كالطائفة والعشرة والعرقية والإقليمية والانعزالية . ووحدت المجتمع في إطار الانتماء المشترك للوطن وليس لأي انتماء مهما كان نوعه غير الارض التي تعيش عليها الجماعة.

www.mtenback.com

وكانت العلمانية في نشأتها مقابلا موضوعيا للدولة الدينية أو بالاصح كانت تصحيحا لواقع الكنيسة وسيطرتها في العصور الوسطى ولكنها بعقلانيتها وإنسانيتها RATIONALISM HUIMANSM تجاوزت أوربا إلى العالم كله وأصبحت كثير من انظمة العالم اليوم تأخذ بآليات العلمانية التي تقوم على مطلق المساواة بين الناس في الدولة وتحمي حقوقهم على اساس المواطنة ، ولكنها لا تلغي الدين ولا تحاربه كما يتصور البعض بل هي حامية للأديان وصديقة لها ومحققة أمن الإنسان على أن يمارس شعيرته الدينية بكل حرية ولا يمنع غيره من ممارسة شعائر دينه ولولا العلمانية في العصر الحديث لما انتشرت أديان الأمم المستضعفة وعمت العالم وأصبحت تعيش على مدى سطح الكرة الأرضية.

اللبرالية Liberalism :

مذهب رأسمالي ينادي في الحرية المطلقة في الميدانين الاقتصادي والسياسي، في الميدان السياسي وعلى النطاق الفردي تؤكد اللبرالية قبول وافكار الغير وأفعاله حتى ولو كانت متعارضة مع أفكار المذهب وأفعاله، وشرطها المعاملة بالمثل.

وعلى النطاق الجماعي فإن اللبرالية هي النظام السياسي المبنى على التعددية الايديولوجية والتنظيمية الحزبية النقابية التي لا يضمنها سوى النظام البرلماني الديمقراطي الذي يفصل بين السلطات الثلاث . التشريعية ، التنفيذية، والقضائية.

قام هذا المذهب على حرية الاستثمارات وحرية إقامة المنشاءات وبأن حرية العرض والطلب هو الذي يحدد السعر، وهي تهمل مصلحة الجماعة تحت شعار اهتمامها بمصالح الفرد لأنها تعتقد أن مصالح الافراد تتطابق تمام مع مصلحة المجتمع.

www.mtenback.com

الجزء الثاني من العنوان:

تصورنا نحن:

لها الفلسفات الاجتماعية والسياسية.

نتصور الديمقراطية بأنها مذهب يحل تشضريع البشر بدل تشريع الأديان.

ونتصور أن العلمانية مذهب إلحادي يفصل الدين عن الدولة.

ونتصور أن اللبرالية حرية مطلقة لا تنضبط بضوابط الأديان والمجتمعات.

وليس الأمر كما نتصور أو كما يتصور بعضنا على الاقل

الديمقراطية:

الديمقراطية منذ نشأتها الأولى في أثينا اليونانية إلى يومنا هذا هي نظام اتجه إلى أفضل الطرق وأقرب الأساليب لإدارة الناس واجتمع الرأي الغالب كثرة والأخذ به المصلحة الجماعة الراشدة.

الديمقراطية ليست مذهبا يحل التشريع البشري بدل تشريع الأديان ولان هي مذهب الكثرة أو الغوغاء و ما غير ذلك من التصورات التي تقلل من الاستفادة من تجارب الأمم عبر التاريخ وتشوه صورة الديمقراطية حين تفرغها من معناها وممارستها بشكل مخالف لحقيقتها، فالأنظمة في العالم الثالث والعالم العربي والإسلامي التي أخذت بشيء من الديمقراطية أخذت القشور منها ووظيفتها لصالحها وتركت اللباب النافع، الذي نهض بأوروبا وأوصلها إلى الحال المتقدم الذي نراه ونشهده ونعجز عن الاتيان بمثله أو ما يقاربه فحكمنا المسبق وتصورنا ليس على حقيقة الديمقراطية بل على المشوه من

www.mtenback.com

الممارسات الخاطئة لها. ولا يوجد نظام عالج إدارة الناس قائم اليوم أو كان قبل ذلك إلا وهو شكل من أشكال الديمقراطية ونسيج من نسيجها قل ذلك النسيج به أو كثر.

العلمانية:

نتصور أن العلمانية مذهب إلحادي يفصل الدين عن الدولة ويحارب المعتقدات الدينية. وينحو نحو الإلحاد هذا هو تصورنا للعلمانية وهو بعيد كل البعد عن الواقع الذي تمارسه العلمانية في حقيقة امرها، ولو طلبت منكم الآن الخيار بين الدولة الدينية.

والدولة العلمانية لا أشك أنكم سترفعون أيديكم جميعا للدولة الدينية.

لكن دعوني أعرض أمامكم تجربتين تعرفونهما واقعا وتعرفونهما تاريخا وفي أوروبا خاصة.

الدولة الدينية الافرانجية عندما قويت وسيطرة في الاندلس.

والدولة العلمانية في نفس المكان أوروبا في العصر الحاضر

وبأي الدوليتين انتصرت حرية الشعائر وكيف تعاملت كل دولة مع الأديان. تعليق الدولة الدينية في الأندلس والدولة العلمانية المعاصرة و نضرب مثالا في خمس دقائق.

لم تترك الدولة الدينية في أوروبا لأي دين غير المسيحية الكاثولكية مكانا فيها وخيرت من لا يعتنق دينها.

خيارين القتل أو الخروج من أرضها. أما الدولة العلمانية في اوروبا اليوم قلم تنتشر الأديان وخاصة الإسلام ويبلغ مشارق الأرض ومغاربها إلا بتسامح العلمانية وأنظمتها فأصبحت تحافظ على حرية المسلمين وتسمح لهم برفع شعائرهم وإقامة مساجدهم بل تساعدهم بأموال دافعي الضرائب من غيرهم على ذلك (((نضرب مثالاً ببناء مسجد نيويورك الذي يزمع بناؤه قريبا من مكان برجي التجارة اللذين دمرتهما القاعدة – لمدة خمس دقائق)))

www.mtenback.com

الليبرالية:

نتصور أن الليبرالية حرية مطلقة لا تنبط بضوابط الأديان والمجتمعات، وأنها أداة للانفلات من كل القيود ولاسيما القيود الدينية، كان فهمنا الخاص للبرالية هو سبب نفورنا منها وابتعادنا عنها ذلك أننا ظن أن اللبرالية هي خروج الإنسان بحريته عن كل التزام أخلاقي، مما يجعله يختار ما يشاء في كل ما يريد ويمارس ذلك دون رقابة المجتمع الذي يعيش فيه.

ولكن حقيقة اللبرالية أنها ظاهرة رأسمالية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمال وحركته. وهي وثيقة الصلح بالاقتصاد الحر هذه هو أساس اللبرالية. ومن المنظرين لها آدم سمث ومالتوس وريكاردو ، وجون استيوارت وغيرهم من كبار الاقتصاديين وتؤكد البرالية على الملكية الفردية وحرية المنافسة متوجهة إلى الاقتصاد وحركته في المجتمع. ولكنها مع حرية الاقتصاد أعطت للفرد حريات اخرى في السلوكيات والمعتقدات، وهي في النهاية حرية الفرد عندما لا تتعارض مع حرية غيره.

والعلاقة بين هذه النظم متداخلة يفضي بعضها إلى بعض وبينها قواسم : اهمها الحرية ، العدل ، المساواة.

ولو اردنا تعريف هذه النظم الاجتماعية والسياسية بكلمات لقلنا.

إن العلمانية علاقة الدولة بالناس.

والديمقراطية علاقة الناس بالناس.

والبرالية استقلال الفرد بذاته.

الربيع العربي و خيار الدولة المدنية.

والعلاقة بين هذه الانظمة الثلاثة متداخلة يفضي بعضها إلى بعض وبينها قواسم مشترك أهمها الحرية والعدل و المساواة.

www.mtenback.com

خيار الربيع العربي:

أمطر الربيع العربي على خمس دول هي تونس ومصر وليبيا والمغرب وسوريا واليمن ومالت كفة الميزان في هذه الدول إلى التيارات الإسلامية التي كانت ترفع شعار ((الإسلام هو الحل)).

وما كادت هذه التيارات الإسلامية تتلمس درجات سلم السلطة حتى أعلنت جميعها وبلا استثناء التخلي عن مشروعها الأول، وأعلنت أن خيارها هي الدولة المدنية وليست الدولة الدينية وهذا شاهد على ان هذه الانظمة هي ما يمكن تطبيقه في هذا الوقت والحق ما شهدت به الأعداء.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com